

الأجناس النثرية في الموروث النقدي العربي

Prose Genres in the Arab Monetary Legacy

د. مصطفى البشير قط، أ.د. محمد بن صالح

جامعة محمد بوضياف المسيلة، مخبر الشعرية الجزائرية

mostefaelbachir.gatt@univ-msila.dz

جامعة محمد بوضياف المسيلة، مخبر الدراسات اللغوية النظرية

bensalahmohamed28@gmail.com

المعلومات المقال	الملخص (لا يتجاوز 10 أسطر)
تاريخ الارسال: 2022/12/01	نال الشعر نصيبا وافرا من اهتمام النقاد العرب القدامى ، على عكس النثر الذي لم يحض بالاهتمام نفسه نقديا ، ومع ذلك فإن الاهتمام به لا نعدمه في عدد من المصنفات النقدية القديمة على قلة ما وصل إلينا منها.
تاريخ القبول: 2022/12/11	والملاحظة نفسها تسجل على الدراسات الحديثة التي تناولت النقد العربي القديم فقد كانت – في معظمها- منصبة على الشعر دون النثر . وإن تطرقت للنثر ففي معرض الموازنة بينه وبين الشعر .
الكلمات المفتاحية:	وللنثر أجناس تختلف عن أجناس الشعر، و ينبغي أن نعترف أن الأجناس النثرية في الأدب العربي مغبونة إلى حد ما فهي لم تطرح على بساط البحث بذلك النزوع إلى التعمق و التحليل الذي استأثرت بهما دراسات الشعر العربي.
أجناس-نقد – نثر – عربي.	

<p>وفي هذا البحث دراسة واستقصاء لأراء النقاد العرب القدامى في الأجناس النثرية.</p>	
<p><i>Abstract : (not more than 10 Lines)</i></p>	<p><i>Article info</i></p>
<p><i>Poetry has received a large share of attention from the ancient Arab critics, unlike prose, which did not get the same critical attention. Nevertheless, the interest in it was not lacking in a number of ancient monetary works, despite the small amount of what has come down to us from them.</i></p>	<p><i>Received</i> <i>Accepted</i></p>
<p><i>The same observation is recorded in recent studies that dealt with ancient Arab criticism, as it was - in most of them - focused on poetry rather than prose, and if it touched on prose, it is in the context of balancing it with poetry.</i></p>	<p><i>Keyword: Genres - Criticism - Prose – Arabic</i></p>
<p><i>Prose has genders that differ from poetry, and we must admit that the prose genres in Arabic literature are to some extent degraded, as they were not put on the table with that tendency to deepen and analyze which studies of Arabic poetry accounted for This research contains a study and an investigation of the opinions of the ancient Arab critics on the prose genres.</i></p>	

مقدمة:

لقد حظي الشعر بالنصيب الأوفى، والقدح المعلى من اهتمام النقاد العرب القدامى، نظرا إلى المكانة المتميزة التي يتبوؤها في نفوس العرب بعدّه ديوانهم الأول، غير أن النثر لم يحض بالاهتمام نفسه نقديا، سوى أن الاهتمام به لا نعدمه في عدد من المصنفات النقدية القديمة على قلة ما وصل إلينا منها.

هذا في القديم، أما حديثا – حسب علمي - فلم تنل الدراسات النقدية المنصبة على النثر - على قلتها – هي الأخرى نصيبها من اهتمام الباحثين والدارسين المحدثين، إذ أن أغلب الدراسات الحديثة التي تناولت النقد العربي القديم كانت منصبة على الشعر دون النثر، وإن تطرقت له ففي معرض الموازنة بينه وبين الشعر (موافي، د.ت).

وبناء على ذلك صار النقد العربي القديم في نظر كثير من الباحثين والدارسين المحدثين ينصب على الشعر دون النثر، وكأن ليس للعرب آراء في نقدية في النثر، بينما الحقيقة التاريخية تفند هذا الزعم تفنيدا قاطعا، فقد كان للعرب آراء في نقد النثر، بدأت أولية ارتجالية منذ العصر الجاهلي، ثم تطور هذا النقد وتبلور في مؤلفات خاصة به ككتاب "إحكام صنعة الكلام" للناقد الأندلسي ابن عبد الغفور الكلاعي، بالإضافة إلى كتب جمعت بين نقد الخطابين الشعري والنثري، ككتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري، و"البرهان في وجوه البيان" لابن وهب المشهور بنقد النثر المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير، وغيرها من المؤلفات. وللنثر أجناس (العسكري، 1984، ص17) تختلف عن أجناس الشعر، وقد أفاض النقاد العرب القدامى في الحديث عن الأجناس الشعرية، فإذا بحثنا فيما قالوه عن الأجناس النثرية وجدناه نورا

قليلا لا يفي بالحاجة، و لا يشفي الغلة ، على الرغم من أن النثر بدأ يزاحم الشعر في موضوعاته، فيسطو عليها، و يبسط فيها القول بداية من العصر العباسي، إذ " بعد أن كان المدح و الهجاء و الرثاء أمورا لا تتجاوز الشعر طمع فيها الكتاب، فمدحوا و هجوا و عاتبوا و رثوا، و وصفوا فأكثروا من الوصف، و من وصف أشياء لم يكن الشعر يعرض لها ، ثم عندما تناولوا هذه الفنون التي كانت في أول الأمر مقصورة على الشعراء بسطوها بسطا يفوق ما كان مألوفا في الشعر" (حسين، د.ت، ص55-56) على نحو ما يظهر ذلك في نثر الجاحظ، و بديع الزمان الهمداني ، و أبي حيان التوحيدي و غيرهم ، على الرغم من أن أبا هلال العسكري يرى استقلال كل من الشعر و النثر ببعض الموضوعات الخاصة به، إذ من خصوصية الشعر أن بعض موضوعاته لا يمكن أن تتناول نثرا ، و في ذلك يقول : " و من صفات الشعر الذي (كذا) يختص بها دون غيره، ان الانسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة ، و إن عمل في ذلك أبياتا من الشعر احتمل " (العسكري، د.ت، ص157) .

وأجناس النثر تكاد تحصر عند النقاد العرب القدامى في جنسين عظيمين كان لهما ظهور متميز على المشهد النثري العربي القديم، و أعني بهما الخطابة بعدّها ذات صبغة شفهائية تمثل البداوة ، و الرسالة بعدّها ذات صبغة كتابية تمثل الحضارة ، و قد أفاض الجاحظ في الحديث عن الجنس الأول أي : الخطابة ، فأسس لها في كتابه " البيان والتبيين " ، بينما نجد العسكري يحصر الأجناس النثرية في الخطابة و الترسل (العسكري، د.ت، ص154، 179) ، أما صاحب " البرهان" فيرى أن أجناس المنتثور أربعة مضييفا إلبالجنسين السابقين جنسين آخرين هما : الجدل ، و الحديث إذ يقول : " و ليس يخلو المنتثور من أن يكون خطابة ، أو ترسلا، أو احتجاجا، أو حديثا ، و لكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه" (ابن وهب، د.ت، ص150) ، و الاحتجاج هنا يقصد به الجدل أو ما

يعرف في الأدب العربي بالمناظرات ، وهو يعدها جنسا نثريا قائما بذاته، على الرغم من أنه "يمكن رد الاعتبارات المذكورة فيه إلى ضرب من الخطابة الاستدلالية" (هلال، 1982، ص203، 206)، أما الحديث فلعل المقصود به ما يتداوله الناس في أحاديثهم اليومية و هو ما يستنتج من قوله : " و أما الحديث فهو ما يجري بين الناس في مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلاتهم"(ابن وهب، دت، ص198). و هو بهذا المفهوم لا يمكن أن يدرج في الأجناس النثرية، لأن المقصود بالنثر عند النقاد الكلام الأدبي الفني الذي يرقى عن مستوى التخاطب اليومي بين الناس كما سبق أن شرحنا، و هو باعتراف صاحب " البرهان" له وجوه كثيرة منها: الهزل والقبیح، و الملحون، و الخطأ، والكذب، و الباطل، والسخيف الذي هو "كلام الرعاع و العوام الذين لم يتادبوا ولم يسمعوا كلام الأدباء، ولا خالطوا الفصحاء، وذلك معيب عند ذوي العقول ، ولا يرضاه لنفسه إلا مائق جهول"(ابن وهب، دت، ص198-200)، كما أشار صاحب البرهان إلى أجناس نثرية أخرى كالوصايا و التوقيعات إلا أنه لم يفصل القول فيها (ابن وهب، دت، ص161).

و قد أشار ابن النديم إلى جنس نثري قصصي عرفه الأدب العربي متأثرا بالأدب الفارسي و هو " الخرافة على لسان الحيوان" (ابن النديم، دت، ص369)، غير أن النقاد العرب لم يشيروا إلى هذا الجنس و لم يفصلوا القول فيه .

وفي القرن السادس استطاع ابن عبد الغفور الكلاعي (ت 543هـ) بحسه النقدي الدقيق أن يحدد الأجناس النثرية بأكثر وضوح وتفصيل في كتابه "إحكام صنعة الكلام" وهي عنده تنحصر فيالترسيل، والتوقيع، والخطبة، والحكم والأمثال، والمقامة، والحكاية، والتوثيق، والتأليف(الكلاعي، 1966، ص103)، وبالرغم من ريادة الكلاعي وتفرده في حصر الأجناس النثرية، إلا أن محاولته هذه لاتشمل أو تعكس كل الأنواع النثرية التي عرفها أدبنا العربي القديم؛ كالمناظرات، والسير والتراجم، والرحلات.

وباستثناء محاولة الكلاعي هذه فإن معظم النقاد الذين تناولوا النثر بالدراسة لم يهتموا كما ذكرنا سوى بجنسين نثريين هما الخطابة والترسل.وقد أشار محمد فتوح أحمد إلى هذا الحيف الذي لحق بالأجناس النثرية في النقد العربي القديم بقوله: "و ينبغي أن نعتزف أن الأجناس النثرية في الأدب العربي مغبونة إلى حد ما فهي لم تطرح على بساط البحث بذلك النزوع إلى التعميق و التحليل الذي استأثرت بهما دراسات الشعر العربي" (أحمد، 1984، ص5).

وربما يرجع سبب انصراف النقاد العرب عن الاهتمام بالأجناس النثرية الأخرى، و اهتمامهم بالتنظير لجنسين نثريين فقط هما الخطابة و الرسالة إلى القيمة الوظيفية لهذين الجنسيتين النثريين، إذ ارتبطت الخطابة غالبا بالعرض الديني، بينما ارتبطت الرسائل و خاصة منها الديوانية بالعرض السياسي المتعلق بالدولة، وبالتالي فالخطابة والرسالة على حد تعبير العسكري "مختصتان بأمر الدين و السلطان"(العسكري، دت، ص154)، هذا فضلا عن المكانة الاجتماعية والأدبية لكل من الخطيب و الكاتب، كما بينا ذلك أنفا، مما يجعل الأدباء و النقاد ينشغلون بهذين الجنسيتين النثريين عن سواهما من الأجناس النثرية الأخرى التي ينالها الضيم من جراء ذلك، وهي ممارسة نقدية لا

تنسجم والواقع الأدبي للخطاب النثري الذي عرفت أجناسه الأخرى كالأمثال والقصص رواجاً وإقبالاً كبيرين ، لم تواكهما حركة نقدية بنفس المستوى ، مما يجعلنا نلاحظ شرحاً واضحاً بين التنظير والممارسة الأدبية بالنسبة إلى معظم أجناس الخطاب النثري باستثناء جنسي الخطابية و الترسل.

و على هذا فإن اهتمام النقاد العرب القدامى بالثر ظل محصوراً في الخطابية و الرسائل إذ فصلوا القول فهما، ووضعوا لكل منهما شروطه الفنية التي تحدد خصائصه و مميزاته، على الرغم من " أن كثيراً مما ذكره في باب الرسائل مكرور مع ما أورده في الخطابية" (هلال، د.ت، ص203) ، و قد وكد على ذلك غير واحد من النقاد ؛ فأبو هلال العسكري يرى أن الخطب و الرسائل يتشاكلان في خضوعهما لنفس القواعد البلاغية، و الفرق الوحيد بينهما أن الخطبة تكون شفوية، و الرسالة تكتب، و إن كان قد استدرك بأن الرسالة تجعل خطبة، كما تجعل الخطبة رسالة (العسكري، د.ت، ص154).

ويبين صاحب البرهان ما يحتاج إليه الخطيب من وسائل الخطاب الشفهي كجهاز الصوت ، وسلامة النطق من العيوب " بعكس الخطاب المكتوب كالرسائل التي تكون مستغنية عن جهاز الصوت ، وسلامة اللسان من العيوب ، لأنها بالخط تنقل " (ابن وهب، د.ت، ص172).

فالنقاد العرب لم يفرقوا بين النثر الشفهي ممثلاً في الخطابية، و النثر الكتابي ممثلاً في الرسائل ، إلا في الناحية الشكلية التي تتعلق بالنطق و الكتابة ، أما فيما ينتج عن " الشفاهية و الكتابية " من خصائص أسلوبية فإن معظمهم لم يلاحظوا أي فرق بينهما ، سوى أن ظروف إنتاج كل من الخطابين الشفهي و الكتابي أدت بالنقاد إلى رصد بعض الفروق في الوسائل – غير اللغوية – المتوسل بها للاقناع و التأثير ، و مطالبة الخطيب بمراعاة " المقام " أكثر من الكاتب ، و حتى في هذه الناحية فإننا نجد ابن وهب لا

يفرق بين الخطابة والرسالة ، إذ يقول : " وأن يكون الخطيب والمترسل عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له ... يعطي كل قوم من القول بمقدارهم، ويزنهم بميزانهم ، فقد قيل: لكل مقام مقال " (ابن وهب، د.ت، ص153). فالنقاد يؤكدون على الجانب التنفيذي أو التحريري الذي تصب فيه الرسائل على الورق ، وما يتبع ذلك من الحديث عن نوعية الورق والقلم وحسن الخط والحبر ... إلخ ، وهي وسائل تحسينية تزيد في بهاء الرسالة لذلك قال ابن وهب : "الرسائل مستغنية عن جبهة الصوت وسلامة اللسان من العيوب لأنها بالخط تنقل فتحتاج إلى أن يساعد حسنها حسن الخط، فإن ذلك يزيد في بهائها ويقربها من قلب قارئها" ومن هنا جاء الاهتمام الكبير بشؤون الخط ووسائله في تراثنا العربي، لأنه إذا كان النثر الشفهي يعتمد على النطق وفن الإلقاء باستعمال الحركات، فإن النثر الكتابي يستعيز عن ذلك بحسن الخط باعتباره فنا مقروءا ، لذلك اشترط النقاد في الكتاب جودة الخط ، والحقيقة أن جودة الخط وحسن توزيع الكتابة على الورق من الأمور التي يهتم بها النقد المعاصر فيما سمي "بالفضاء النصي" ، والحق أن وعي بلاغة المكتوب بين دارسي الأدب لم يتحقق إلا حديثا في مجالات الشعرية وعلم الدلالة، حيث اتسعت الاهتمامات الفضائية بصورة موازية لتيار الشعر الفضائي والقصيدة البصرية وقصيدة البياض، فأغنى المكتوب شعرية الكلام إذ أضاف إليها بعد الفرجة.

و كما لاحظ النقاد العرب القدامى بأن بعض الشعراء قد يحسنون القول في بعض الأجناس الشعرية، ولا يحسنون في بعضها الآخر (ابن قتيبة، 1987، ص43)، لاحظوا أيضا الملاحظة نفسها على الكتاب الذين قد يحسنون الكتابة في جنس نثري دون آخر، و في ذلك يقول العسكري: " و كذلك الكاتب ربما تقدم في ضرب من الكتابة، و تأخر في غيره، و سهل عليه نوع منها، و عسر نوع آخر " (العسكري، د.ت، ص32-33).

وقد ذكر ضياء الدين بن الأثير (ت637هـ) أن " الحريري صاحب المقامات قد كان على ما ظهر عنه من تنميق المقامات واحدا في فنه ، فلما حضر بغداد ، ووقف على مقاماته ، قيل : هذا يستصلح لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة ، ويحسن أثره فيه ، فأحضر و كلف كتابة كتاب فأفحم ، ولم يجر لسانه في طويلة ولا قصيرة " (ابن الأثير، د.ت، ص38-39)، بل إن من الكتاب من يحسنون الكتابة في موضوع دون آخر في إطار الجنس النثري الواحد، فقد قال الثعالبي عن علي بن محمد الاسكافي: " من عجب أمره أنه كان أكتب الناس في السلطانيات فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي قصير الباع" (الثعالبي، 1973، ص97).

وهكذا فقد سجل النقاد ضروبا من الملاحظات على الأجناس النثرية وقد حاولوا الاتساع بمفهوم النثر ليشمل أدب الجدل والأعمال التأليفية بالإضافة إلى الرسائل والخطب ، وهم وإن كانوا قد رصدوا بعض الأجناس النثرية كالأمثال والقصص والمناظرات والمقامات إلا أنهم قد أهملوها إهمالا واضحا في صلب النصوص التنظيرية ، إذ يبدو أن نظرية الأدب في مفهومهم لم تتعد كون الأدب أحد ثلاثة؛ إما شعر وإما خطب وإما رسائل مما نتج عنه قصور واضح في النقد الدائر حول بقية الأجناس.

■ خاتمة:

وهكذا رأينا كيف تفرع النثر إلى أجناس على غرار الشعر وقد تركز حديث النقاد عنها في جنسين أولوهما كامل العناية من حيث الشرح والتقنين، وهما الخطابة التي تأتي على رأس الأجناس ذات الصبغة الشفهية، والرسالة التي تأتي على رأس الأجناس ذات الصبغة الكتابية، وعللنا سبب ذلك بارتباط دينك الجنسين النثريين. بمصالح الدولة والمجتمع، غير أن ذلك لم يمنعا من لم شتات

حديث النقاد – وإن كان ضمنيًا- عن بعض الأجناس النثرية الأخرى، كالمناظرات، والأمثال، والجوابات في الأجناس الشفهية، والتوقيعات والقصص، والمقامات في الأجناس الكتابية.

قائمة المراجع:

- 1) موافي، عثمان، (1996)، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، مصر، دار المعرفة الجامعية.
- 2) الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، (1959)، الموازنة، مصر، المكتبة التجارية الكبرى.
- 3) البقلاني، محمد بن الطيب أبو بكر، (د.ت)، إعجاز القرآن، بيروت، دار المعرفة.
- 4) المعري، أبو العلاء، (1984)، رسالة الصاهل والشاحج، مصر، دار المعارف.
- 5) حسين، طه، (1969)، من حديث الشعر والنثر مصر، دار المعارف.
- 6) العسركي، أبي هلال، (د.ت)، الصناعتين، مصر، دار النهضة للطبع والنشر.
- 7) ابن وهب، إسحاق ابن إبراهيم، (1969)، البرهان في وجوه البيان، مصر، مكتبة الشباب.
- 8) ابن نديم، محمد ابن إسحاق، (1997)، الفهرست، لبنان، دار المعرفة.
- 9) الكلاعي، محمد ابن عبد الغفور، (1966)، إحكام صنعة الكلام، لبنان، دار الثقافة.
- 10) أحمد، محمد فتوح، (1984)، النثر الكتابي في العصر الأموي، مصر، مكتبة الشباب.
- 11) هلال، محمد غنيمي، (1982)، النقد الأدبي الحديث، لبنان، دار العودة.
- 12) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (1987) مثلا الشعر والشعراء، بيروت، دار إحياء العلوم.
- 13) ابن الأثير، ضياء الدين، (د.ت)، المثل السائر، مصر، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(14) الثعالبي، عبد الملك ابن محمد، (1973)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، بيروت، دار الفكر.